خطوة واعية نحو مستقبل آمن

اجعل طفلك مستخدمًا للتكنولوجيا لا عبدًا لها

أحمد سليم عوض
تربوي وكاتب قصص أطفال - مصر

يكبـر أطفالنـا اليـوم في عالم يختلـف جذريًا عـن العالم الذي نشـأنا فيه؛ عالم تحيط به الشاشـات مـن كل جانب، وتديـره الخوارزميات بصمت، ويتسـلل فيه الذكاء الاصطناعي إلـى تفاصيل الحياة الصغيرة قبـل الكبيرة؛ فالطفل الـذي كان يتعلّـم مـن الكتاب واللعـب الحر، أصبـح يتعلّم أيضًا مـن الهاتف الذكـي، واللوح الإلكترونـي، والألعاب الرقميـة، والبرامـج التفاعليـة. وأمام هذا التحوّل المتسـارع يفرض السـؤال نفسـه عـلى الآبـاء والمربّين: كيف نُدخـل الذكاء الاصطناعـي إلى حياة الطفل مـن دون أن نُفقده جوهره الإنسـاني، وكيف نُوازن بين الاسـتفادة من أدوات العصـر، وحمايـة الطفولة مـن الذوبان في عالـم افتراضي بلا روح؟

> لا يشعر.. لا يحب.. لا يحزن.. لا يفهم المشاعر

في البداية قررت أن أسال الذكاء الاصطناعي عن نفسه، وطلبت منه أن يبسّط لي ما هو.. بنتي كان ردها علي عندما سألتها عنه قالت لي: «حاجة كده وخلاص». أما هو فقد قال لي موجهاً كلامه إلى كل طفل تخيّلي إن «هناك آلة أو برنامج كمبيوتر يتعلّم مثل الإنسان، يفهم، ويجرّب، ويخطئ، ثم يحاول أن يصبح أفضل مع الوقت،هذا بالضبط ما نسمّيه الذكاء الاصطناعي، لذا عندما تحاول أن تعرّفني فأنا قدرة بعض الأجهزة والبرامج على التفكير والتعلّم واتخاذ قرارات بسيطة تشبه طريقة تفكير الإنسان.

سألته كثيراً وأجاب كثيراً: كيف يعمل الذكاء الاصطناعي؟

فقال: الذكاء الاصطناعي لا يولد ذكيًا، بل يتعلّم خطوة خطوة، مثل الطفل عندما يتعلّم ركوب الدراجة، هو يتعلّم عن طريق: رؤية أمثلة كثيرة، تكرار المحاولة، تصحيح الخطأ، حفظ الخبرة للمرة المقبلة، ولهذا السبب كلما استخدمناه أكثر، أصبح أدقّ وأذكى.

سألته: أين نرى الذكاء الاصطناعي في حياتنا؟

فأجاب: قد تراه من دون أن تشعر، مثل الهاتف الذي يتعرّف إلى صوتك، والتطبيقات التي تقترح لك فيديوهات تحبها، والألعاب الذكية التي تصبح أصعب كلما تقدّمت، والمساعد الصوتي الذي يجيب عن أسئلتك.. كل هذه الأشياء تستخدم الذكاء الاصطناعي.

سألته: هل الذكاء الاصطناعي إنسان؟

فأجاب: لا، الذكاء الاصطناعي لا يشعر، لا يحب، لا يحزن،لا يفهم المشاعر مثل الإنسان. هو آلة ذكية، تعمل بما يعلّمها الإنسان فقط .

لماذا صنع الإنسان الذكاء الاصطناعي؟

أجاب: صنعه لكي يساعده على التعلّم، يوفّر الوقت والجهد، يحلّ المشكلات بسرعة، يكتشف أشياء جديدة، لكن الإنسان هو من يتحكّم فيه، وليس العكس.

هل الذكاء الاصطناعي مفيد للأطفال؟

قال: نعم، إذا استُخدم بشكل صحيح؛ لأنه يساعد على التعلّم بطريقة ممتعة، يشرح الدروس بأسلوب بسيط، يراعي سرعة كل طفل. لكن يجب دائمًا استخدامه بوقت محدد بإشراف الأسرة من دون أن يحلّ محلّ اللعب والحوار والقراءة. إذاً، الذكاء الاصطناعي صديق ذكي صنعه الإنسان ليساعده، لكن القلب والعقل والضمير دائمًا أهم من أي آلة.

الذكاء الاصطناعي.. ماذا يعني لطفلنا؟

سؤال شغلني وأنا أكتب سطور هذه المقالة، وكأنني أجعل نفسي طفلاً يعيش مع محتوى الذكاء الاصطناعي، فوجدت أن الأطفال لا يتعاملون مع الذكاء الاصطناعي بوصفه مصطلحًا علميًا معقدًا، بل يراه الطفل في صور بسيطة وقريبة من عالمه، مثل لعبة تفهمه وتتفاعل معه، أو تطبيق تعليمي يقدّم المحتوى حسب مستواه. جهاز يجيب عن أسئلته بسرعة. إنه – من وجهة نظر الطفل - برنامج ذكي يتعلّم من سلوكه ويستجيب لاهتماماته، وهنا تكمن الفرصة الكبرى، وهنا أيضًا تتعاظم المسؤولية التربوية.

لقد أصبح الذكاء الاصطناعي حاضرًا في طفولة اليوم، وذلك أن عالم الطفل نفسه تغيّر، وتغيّرت أدوات التعليم والتواصل، فأصبح التعلّم قائمًا على التفاعل لا التلقين، وصارت المعرفة مرتبطة بالصورة والصوت والحركة، والزمن أسرع، وفترات الانتباه أقصر. وقد استطاع الذكاء الاصطناعي أن يواكب هذه التحوّلات، فدخل إلى غرف الأطفال بهدوء، وأصبح جزءًا من يومهم الدراسي والترفيهي.

الجانب المشرق

لا شـك فـي أن الـذكاء الاصطناعي يمكـن أن يحقـق جوانـب إيجابيـة؛ فهو يمكن أن يكـون صديقًا للطفل، حيـث إنـه يقـدم تعليمـاً يراعـي الفـروق الفردية، وتتميّـز تطبيقاته بقدرتهـا على تحديد مسـتوى الطفل بدقـة، والتدرّج معه مـن دون ضغط أو مقارنـة، ويحترم اختلاف القدرات؛ ما يعـزّز الثقة بالنفـس ويخفّف من مشـاعر الفشـل. كمـا يدعـم حـبّ التعلّم مـن خلال لعبـة تعليمية، أو قصـة تفاعلية، أو تجربـة افتراضية، فيُقبـل الطفـل عـلى التعلّـم بدافع داخلـي، لا خوفًـا مـن العقـاب أو الامتحان. يتميز الـذكاء الاصطناعي أيضًـا بمسـاندة الأطفـال ذوي الإعاقـة؛ حيـث أسـهم فـي تطوير برامج تسـاعد على تحسـين النطق، وتنمية مهـارات التواصـل، وتقديم خطـط تعليميـة مخصّصـة، فاتحًـا أبـواب أمـل حقيقيـة لكثيـر مـن الأسر.

الوجه الآخر

أما الوجـه الآخر للـذكاء الاصطناعي ومتى يتحوّل إلى خطـر، فإنه يتمثل في تكريـس العزلـة وقلـة الحوار.. الاسـتخدام المفرط للتكنولوجيا قد يـؤدي إلـى ضعـف الحوار الأسـري، وتراجـع اللعـب الجماعـي، وضمـور التعبيـر العاطفـي، بينمـا الطفـل يحتـاج إلـى التفاعل الإنسـاني بقدر حاجتـه إلـى المعرفـة. كذلـك فـي اعتياد الحـلّ السـريع؛ فحين يحصل الطفـل عـلى الإجابـة فـورًا تقـل محاولاتـه، ويضعف صبـره، ويتراجع اجتهـاده، فـي حيـن أن التعلّـم الحقيقـي يقـوم عـلى المحاولـة والخطـأ وبـذل الجهد.

هنـاك أيضـاً مشـكلة تقديـم محتـوى غير مناسـب؛ فليسـت كل الخوارزميـات آمنـة، وقـد يتعـرّض الطفل إلـى أفكار لا تناسـب عمره، أو إعلانات خفية، أو نماذج سـلوكية غيـر ملائمـة ثقافيًـا وأخلاقيًا.

الـذكاء الاصطناعـي لا يُربّـي، بل إن الأسـرة هـي التـي تفعـل، فمهما تبلـغ التكنولوجيـا من تطـوّر، يظل دور الأسـرة هـو الأسـاس. الذكاء الاصطناعـي يمكنه أن يعلّـم، لكنه لا يسـتطيع أن يُربّي أو يغرس القيم أو يمنـح الطفـل الأمـان العاطفي، ويتمثّـل دور الأسـرة فـي هـذه الحالـة في تنظيـم وقت اسـتخدام الشاشـات، ومشـاركة الطفل فيما يشاهده، وتفسـير المحتوى وربطه بالواقع، وترسـيخ القيم الإنسانية، وفتـح مسـاحات للحوار والسـؤال؛ فالطفـل الذي يجد من يسـتمع إليه لا يبحث عـن بديـل افتراضي.

للمدرسة أيضاً دور

المدرسـة أيضاً يجب ألا تكون مكانًا للحفـظ فقط، بـل هـي مطالَبة بأن تعلّـم التفكيـر لا التلقين، وتشـرح التكنولوجيـا مـن دون تمجيـد أو تخويـف، وأن تـزرع الوعـي الرقمي، وتعلّـم أخلاقيـات الاسـتخدام؛ وذلك عبر أنشـطة بحثية ومشـاريع جماعيـة وتدريـب المعلميـن عـلى التوجيـه لا الاسـتبدال.

لسـنا مطالبيـن بـأن نجعـل الطفل مبرمجًـا، بـل إنسـانًا واعيًـا، مفكّرًا ناقـدًا، مسـتخدمًا للتكنولوجيـا لا عبـدًا لهـا. والمهـارات الأهـم هي التفكير النقدي، والـذكاء العاطفي، والتواصل الإنسـاني، وحـبّ التعلّم الذاتي. والـذكاء الاصطناعي خطوة كبـرى فـي مسـيرة التقـدّم، لكنـه ليـس بديلًا عـن القلـب أو العقل أو الضمير، فـإذا أحسـنّا توجيهه أصبح وسـيلة تعليـم وبنـاء، وإذا تُـرك مـن وعـي فقد يسـرق مـن الطفل أجمـل مـا فيـه: إنسـانيته. فلنأخذ بأيـدي أطفالنـا خطوة بخطـوة، نحو مسـتقبل ذكـي وإنسـاني فـي آنٍ واحد.

> لسـنا مطالبيـن بـأن نجعـل الطفـل «مُبرمَجًـا» بـل إنسـانًا واعيًـا